سـورة هـود

سورة هود سورة مكية

هي من السور التي تتحدث عن الأسس التي يُبنى عليها الفرد ثم تقوم عليها المجتمعات و هذه الأسس التي ينبغي البناء بها أولا هي أسس العقيدة من العلاقة مع الله جل و علا و كذلك العلاقة مع كتاب الله جل و علا و مع الوحى و العلاقة مع اليوم الآخر و سائر أركان الإيمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢))

بدأت بالحروف المقطعة و قد سبق الحديث عنها .

كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ : القرآن كتابٌ ، يقال له القرآن و يقال له كتاب .

القرآن : لأنه يُتلى و يُقرأ و لأنه جُمع لأن القرآن أصل مادته أيضا الجمع .

و سُمى كتاباً : لأنه جُمع و كُتب فكتبت حروفه و آياته و ضُمت و جُمعت .

أُحكمت : أي في لفظها ، و أُحكمت بمعنى أُتقنت و حُفظت .

ثُمَّ فُصِّلَتْ : أي بُينت و فُسرت و ظهر ما فيها من أحكام ، من حلال و حرام و غير ذلك .

فهذا الكتاب كتاب مُحكم ، مُحكم في لفظه ، مُفصلٌ في معناه فهو كامل في الصورة و المعنى ، و لذلك هذا الكتاب لا نقص فيه و لا نقض له ، فلا نقص فيه بل هو تام في لفظه و معناه ، و لا نقض بمعنى أنه لم يُنسخ بل هو كالبناء التام الذى ما إن يتم فلا نقص فيه و لا نقض .

أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ : أي أن هذا الكتاب الذى أُتقنت و حُفظت آياته ، ثم فسرها الله جل و علا و بين فيها من حلالٍ و حرام ، إنما المقصد منها هو عبادة الله جلا و علا وحده لا شريك له .

أن : إما أنها أن المفسرة أي التفسيرية و هي التي تُسبق بما يدل على القول و معناه لا لفظه

أي أن لا تعبدوا : أن هذا الكتاب أُرسل إليكم من الله جل و علا ، كُتب و أُتقن و فُصل ، لماذا ؟ لتعبدوا الله جل و علا .

و إما أن أن مع الفعل يكون مصدرا و يكون مفعولا لأجله ، أي لأجل العبادة أحكم الله جل و علا هذا الكتاب و فسره و بين ما فيه من أحكام و حلال و حرام ، أن لا تعبدوا إلا الله جل و علا ، فمضمونها و مآلها ، هذه الدعوة هو أن تعبد الله و حده لا شريك له ، و أن تكفر بكل ما يُعبد من دون الله جل و علا .

إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ : منه أي من الله جل و علا .

نذير : يُعلمهم بالأمر المخوف الذى هم قادمون عليه – أن ردوا شرع الله جل و علا – من العذاب في الدنيا و الآخرة .

بشيرُ : لمن آمن و اتبع الآيات .

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣))

وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ : ما الذى يحدث ؟

يُمَتِّعْكُم : هذا جواب شرط ، و لذلك الفعل مجزوم ، و هذا معناه أن الإستغفار و التوبة كالشرط بالنسبة لذلك الجواب ، فإن هذا الجواب مترتب ترتب الجواب على الشرط فإن استغفروا و تابوا متعهم الله جل و علا .

يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا : يرزقكم رزقا واسعا طيبا ، من رغد العيش و سعة الرزق ، و الصحة و العافية و العمر ، إلى غير ذلك ، و هذا فيه دليل على أن من الأشياء التي تجلب سعة الرزق و تجلب الصحة هي التوبة من المعاصى و الإستغفار ، و أن المعاصى شؤم على صاحبها لأنها تضعف صحته و تذهب ببركة رزقه و قد يُحرم عياذا بالله جل و علا من الرزق بسبب المعاصى .

لماذا قدم الإستغفار على التوبة ؟ قيل لأن الإستغفار هو الغرض المطلوب – أن تُستر ذنوبهم و أن يعفو الله جل و علا عنهم – و التوبةُ هي السبب ، فقدم الغرض على السبب .

و هناك قول آخر : استغفروا من الصغائر و توبوا من الكبائر .

و لكن القول الأول أوجه .

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى : الأجل المسمى أي إلى وقتٍ محدودٍ معلوم .

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ : أي يؤتى كل محسنٍ في طاعته لله ، في عمله و عبادته ، يؤتيه فضله أي يؤتيه جزاء عمله سواء كان في الدنيا أو الآخرة .

وَإِن تَوَلَّوْا : و إن بعدتم عن هذا الوحى و كذبتم بالرسول عياذا بالله جل و علا.

فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ .

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤))

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ : المرجع و العودة تكون إلى الله جل و علا و أنه يحاسبكم على ما تقدمونه من عمل .

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : قديرٌ على على أن يميتكم ، قدير على أن يبعثكم ، قدير على أن تُنشروا ، قدير على حسابكم ، كل هذا الله جل و علا قديرٌ عليه و على غيره .

(أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥))

هذه الآية تبين مدى جهل الكفار بالله جل و علا و أنهم ظنوا – و هذا من ظن السوء عندهم – أنهم إذا استثنوا بصدورهم و استغشوا ثيابهم و استتروا ، أنه لا يعلم سرهم و لا نجواهم ، و هذا من جهلهم بالله جل و علا .

فبين الله لهم أنه يعلم أدنى مما يتوقعون .

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ : أي يشكون في الله جل و علا ، فكانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئا أو عملوه يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأعلمهم الله أنهم حين يستغشون ثيابهم أي عندما يُغطون رؤوسهم عند منامهم في ظلمة الليل ،فإن الله جل و علا يعلم ما يُسرون من القول و يعلم ما يعلنونه ، لماذا ؟

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ : يعلم النيات و يعلم ما في الضمائر و يعلم السرائر ، فلا شيء يخفى على الله جل و علا و قيل أيضا في هذه الآية : كان أحدهم إذا مر برسول الله صلى الله عليه و سلم ثنى صدره و غطى رأسهُ .

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ : كلمة منه على هذا القول الأخير ، الضمير يعود على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، أما بالقول الأول في الآية فالضمير يعود على الله جل و علا ، و هذا أولى الأقوال .. لماذا ؟

لأنه يتبعها بقوله جل و علا : (أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) .

و قد ورد عند البخارى في أحد الصور التي تدخل في هذه الآية و هي أنهم كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم و حال وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية ، و ليس معنى هذا أنها سبب النزول الوحيد و إنما صورة من الصور الداخلة في ذلك ، فأعلمهم الله جل و علا أنهم لو تغطوا فإن الله يعلم و يرى ما هم فيه .

يستغشون : بمعنى يُغطون رؤوسهم و هذا قول ابن عباس رواه عنه البخارى .

(وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦))

وَمَا مِن دَابَّةٍ : كلمة دابة سُبقت بمن و هي نكرة فسبقت بمن فهى نصٌ في العموم ، فكل دابةٍ موجودة على ظهر الأرض فإن الله جل و علا قد تكفل برزقها ، و هذا من كرمه و فضله جعل و علا ، و هذه الآية تعطى طمأنينة في مسألة الأرزاق أنه ما كُتب لك سيأتيك و ما لم يُكتب لك لن يأتيك فلا تتعب نفسك و لكن خُذ بالأسباب و توكل على الله جل و علا .

إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا : إلا على الله ، هذا إيجاب فضلٍ كما يقول بعض أهل العلم ، أو هو إيجاب أوجبه الله جل و علا على نفسه و لم يوجبه أحدٌ عليه ، فإن الله يوجب على نفسه أشياء و يحرم على نفسه أشياء لحكمةٍ يعلمها الله جل و علا .

وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا : المستقر : حيث تأوى في مكان إستقرارها في الأرض .

وَمُسْتَوْدَعَهَا : أي حيث تموت (المكان الذى تصير إليه).

و هذا أولى الأقوال في الآية .و هو قول ابن عباس أن مستقرها حيث تأوى إلى مكان إستقرارها في الأرض و مستودعها أي حيث تصير إليه حيث تموت .

و قد وردت أقوال أخرى منها : أن مستقرها في الرحم و مستودعها في الصلب ، و هذ قول مجاهد ، و قيل مستقرها أي منتهى سيرها في الأرض ، و مستودعها أي أين تأوى إليه من وكرها .

كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ : المقصود به اللوح المحفوظ الذى كتب الله جل و علا فيه كل شيء كائن إلى يوم القيامة .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧))

هذه هي الحكمة من الخلق وهى الإبتلاء ، فالإنسان لم يُخلق هملا و لم يُترك سدى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) .

لِيَبْلُوَكُمْ : ليختبركم .

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً : العمل الحسن إنما يوصف بذلك إذا كان صاحبه مؤمناً و قد أتى بالإخلاص لله جل و علا في عمله و الموافقة لشريعة النبى صلى الله عليه و سلم .

وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ : أي إن قلت لهم ذلك و هو أمر استبعدوه و كثيرا ما تساءلوا (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُون) (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْع بَعِيد)، لأنهم كذبوا به حتى يتمتعوا دون منغص في الحياة الدنيا ، و لذلك قال الله تعالى (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ) ، فهذا تكذيبٌ منهم به و لذلك هم استثقلوا أمر البعث و الساعة و كذبوا بالقرآن ، و اتهموه أنه سحر فقالوا هذا تخييل و هذا باطل .

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (٨))

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ : أي العذاب الذى استعجلوه ، لأنهم استعجلوا العذاب (إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ : الأمة المعدودة هي الطائفة من الأيام القليلة أو مجموعة من الأيام القليلة .

الأمة تُطلق في القرآن على معانى ، من هذه المعانى طائفة من الأيام القليلة ، و قد تُطلق على الأمد و هو بمعنى الزمان المعدود كما في قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) ،

و الأمة يُطلق على الإمام المقتدى به في الخير : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ،

و يُطلق على الملة و الدين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

و يطلق على الجماعة (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ) و يُطلق على الفرقة و الطائفة و هي عائدة إلى معنى الجماعة أيضا .

لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ : ما الذى يمنعه من أن يأتي ؟

أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ : أي يوم يأتيهم هذا العذاب .

لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ : أي لن يُمنع عنهم إذا نزل عليهم .

وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ : حاق : بمعنى نزل ، بمعنى أحاط بهم ما كانوا به يستهزأون .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩))

الرحمة : المقصود بها هنا توفير الرزق و الصحة و السلامة من المحن ، و قد تطلق أيضا على طول العمر .

ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ : سلبها الله جل و علا منه .

إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ : أي يائس من رحمة الله جل و علا ، و كفور : بمعنى جاحدٌ لتلك النعم ، و هذه طبيعة البشر إلا من رحم الله و إلا من استثناهم الله و هو اليأس بعد سلب النعمة و الغفلة بعد زوال النقمة .و على الإنسان أن يشكر الله جل و علا على النعمة قبل سلبها و بعد أن تُسلب و كذلك بعد رفه النقمة عنه ففي كل الحالات يكون شاكرٌ و مواظبٌ على ذلك .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ(١٠))

بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ : حصل له مسٌ فقط ،ضرٌ لا يقضى عليه و لكن من رحمة الله به أن يكون ضر خفيف للإبتلاء فقط .

لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ : نسب الفعل إلى زوال السيئة (السيئة إما أنها فقر أو مرض أو ضيق في الرزق أو الذرية أو ...) لا يقول أذهب الله المرض عنى ، عافانى الله ، شفانى الله ، رزقنى الله ، وهبنى الله .

إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ : فرح : يأشر و يبطر ، و من أشره و بطره أنه نسب النعمة إلى غير المنعم و كان ينبغي أن ينسبها إلى الله فيقول (أذهب الله السيئات عنى ، الحمد لله على ذلك) إنما نسبها إلى أنها زالت و كأنها زالت بنفسها .

فَخُور : بعد أن زالت السيئة يبدأ يفتخر على الناس بما أعطاه الله جل و علا من نعمٍ قد أتته .

(إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١))

هذا هو القسم المستثنى من هذه الطبيعة البشرية العجيبة .

إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ : صبروا على الشكر لأنه عبادة هذه النعمة فيأدون شُكر النعم في كل أحواله (موجودة – سُلبت – أتت) ، و كذلك صابرون على ما يلاقون من أقدار الله جل و علا .

وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ : في كل أحوالهم مستمرون على عمل الصالحات ، لأن بعض الناس إذا أُبتلى ترك الصالحات و بعضهم إذا أُنعم عليه ترك الصالحات فإما أنه غافل و لاهٍ و إما أنه مفرط عياذا بالله .

أُوْلَئِكَ : أي الموصوفون بالصبر و العمل الصالح .لهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢))

فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر بنعمة الله و التكذيب بآياته و إقتراح الآيات التي يقترحونها عليك ، من المقترحات .(لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ : و هو المال الكثير الذى جُمع .أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ : يقترحون أن يأتي مع النبى صلى الله عليه و سلم لكى يُخبرهم بصدق النبى صلى الله عليه و سلم) و هذا كله من التعنت .لعلك من هذا تارك بعض ما أنزله الله عليك و أمرك بتبليغه مما يشق عليهم سماعه أو العمل به ، أي لا يكن منك ذلك بل تبلغ جميع ما أنزله الله عليك سواء أحبوا ذلك أو كرهوا إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ : الله هو الذى يتولى الأمر في إيمانهم و كفرهم و غير ذلك .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣))

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ : يقولون أنه إختلق هذا القرآن فأتى به و نسبه إلى الله .

قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ : فأتوا بعشر سور مثله في البلاغة و حسن النظم و جزالة اللفظ و فخامة المعنى فهو كتابٌ أُحكمت آياته ثم فُصلت ، أم تقولون أنه إفتراه و هو معكم من جنسكم و يتكلم بلغتكم ، فإن كان قد إفتراه فأفتروا أنتم أيضا ، هل يستطيعون ؟ و لذلك تحداهم .

وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ : أي من بلغاء العرب من شركائكم التي تدعون من دون الله إن كنتم صادقين . و لكن هذا القرآن مُعجز .

(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٤))

أن هذا الكتاب الذى أنزله هو الله جل و علا و هو من علمه و هي لغتكم التي تتكلمون بها و لكن لا طاقة للجنس البشرى على أن يأتوا بهذه الألفاظ و لا أن يأتوا بهذه المعانى ، و لذلك هذا من أعظم التحدى على مر العصور و للجميع .و لذلك قال بعدها (وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)

فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ : أي إزدادوا و أثبتوا على إسلامكم و إزدادوا إسلاما لله جل و علا .لماذا ؟ لأنكم تزدادون طمأنينة على طمأنينتكم أن هؤلاء مع التحدى لا يستجيبون .فهذا التحدى الضربة القاضية لكل مشكك و معترض في أي زمان و مكان .

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥))

لاَ يُبْخَسُونَ : لا يُنقصون من أجور أعمالهم في الدنيا ، و هذا كما قال النبى صلى الله عليه و سلم : أولئك أقوامٌ عُجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، و هذا كما في قوله تعالى : (مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ) .

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ : فالذى سيوفيهم الله جل و علا ، أي يُعطيهم أجرهم كاملا لا نقص فيه في الدنيا ، أما الآخرة فليس لهم في الآخرة إلا النار ، و لذلك قال تعالى :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٦))

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ : لأنهم أخذوا جزاء أعمالهم في الدنيا و لم يهد لهم في الآخرة شيء .

وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا : حبط بمعنى ذهب ثوابه .

وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ : ضل و خسروه لأنه لم يكن لله جل و علا و لم يكن وفق شرع الله جل و علا فلم يُقبل .

و لذلك قال تعالى : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) ، فسبب الكفر كان جاعلا لعدم قبول العمل بل و حبوط هذا العمل .

(أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٧))

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ : و هو النبى صلى الله عليه و سلم .

وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ : أي القرآن . وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى : التوراة

إِمَامًا وَرَحْمَةً : إماما يُقتدى به في الخير لأنه يدله على الخير لأنه كتاب الله جل و علا ، و رحمة لمن اتبعه .

أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ : أي من آمن بالتوراة على حقيقتها و آمن بالإنجيل على حقيقته يؤمن بالقرآن .لأنه إنما أتوا من مشكاة واحدة ، يدعون إلى عبادة الله وحده ،و إلى الكفر بالطواغيت .

وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ : الأحزاب بمعنى المتحزبون على الكفر على إختلاف أنواعهم . فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .

هذه الآية دلالة على عموم بعثة النبي صلى الله عليه و سلم و عموم رسالته إلى الناس جميعا لأن الله جل و علا قسم الناس إلى قسمين (مؤمن به و أحزابٌ كافرة به) و هذا دلالة على أنه عام للناس جميعا .

فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ : منه : الضمير يعود على من ؟ قولان لأهل العلم : الأول : الضمير يعود على القرآن .

فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ : في شكٍ و ريبة

قاعدة النهي : أن النهي لمن هو متلبس بالفعل فمعناه أو المقصود به تركه ، أما لمن كان ليس متلبسا به فالثبات على عدمه ، أي يثبت على عدم الشك ، فالمعنى هنا أن يثبت على اليقين الذى في قلبه .فهذا الكلام إذا كان موجها للنبي صلى الله عليه و سلم فمعناه أثبت على عدمه ، و إن كان موجها إلى الأمة التي آمنت فمعناه كذلك أيضا ، و إن كان موجها لغيرهم ممن هو متلبس بالريب فمعناه أترك هذا الريب لأنه أتت الآيات الواضحة البينة على صدقه ، و لذلك قال تعالى : (إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) و هذه قاعدة عظيمة من القواعد في القرآن ، أنها تبين أكثر أحوال الناس و أن كثير منهم لا يؤمنون .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨))

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كذبا : أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا .

وَيَقُولُ الأَشْهَادُ : المقصود بالأشهاد الملائكة و النبيون و قال بعض أهل العلم و العلماء أيضا الذبن بلغوا و قاموا في مقام الأنبياء .

لَعْنَةُ اللَّهِ : معناها سخطه عليه و طرده من رحمته .

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩))

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ : يصدون أنفسهم و غيرهم ، و الصد بمعنى المنع أي يمنعون أنفسهم عن طريق الله جل و علا و يمنعون أيضا غيرهم .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا : أي يريدون طريق الله جل و علا معوجة و سبيلهم معوجة ، لأنهم يريدون أن يكون طريق الله جل و علا موافقا لأهوائهم ، فأهوائهم معوجة .

و قيل أيضا وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا : أي يصفونها بالإعوجاج ، أي يصدون عن سبيل الله بأنهم يصفون طريق الله بالإعوجاج فيصرفون الناس عنه .

وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ : الدافع لهم إلى الصد و الدافع لهم لأن يصفوا طريق الله جل و علا بالإعوجاج أنهم كفروا بالآخرة ، و لذلك فالإيمان بالآخرة هو حجر الزاوية و حجر الأساس الذى تبنى عليه الشخصية المسلمة .

(أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ (٢٠))

مُعْجِزِينَ : سابقين لله هربا و فرارا بحيث في تخيلهم لا يدركهم الله ، إنما سيُدركون فلا مفر لهم من الله .

أَوْلِيَاء : الولى بمعنى النصير لهم .

وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاء : إذا أراد الله لهم بطلبٍ فلن يجدوا من ينصرهم أو يمنع عنهم عذابه إذا نزل .

يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ : لماذا يُضاعف لهم العذاب ؟ لأنهم ضلوا أنفسهم و ضلوا غيرهم .

مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ : هؤلاء وصل بهم الحال إلى أن صار على سمعهم مثل الصمم و الوقر الذى لا يستطيعون أن يسمعوا به الحق ، (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) سُدت عليهم كل الأمور لأنهم كفروا بالله و ردوا شرعه و كذبوا نبيه فكان جزاءهم أن حدث لهم ذلك .

وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ : سبق أن وصفهم الله جل و علا في سورة البقرة (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ) ، عميٌ لأنهم لا يبصرون ما ينفعهم فينتفعون به و الشيء الذى لا يُنتفع به كالمعدوم .

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٢١))

ضَلَّ : بمعنى غاب و ذهب فما عادوا يستطيعون أن يروا فلا يرون وليا و لا شفيعا ، و لذلك هؤلاء هم أخسر الناس صفقة لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن و عن الحور العين بطعام من غسلين و عن القصور العالية بالهاوية و من قرب الرحمن و رؤيته بغضب الديان و عقوبته .

(لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٣))

أَخْبَتُوا : رجعوا و خشعوا لله جل و علا .

أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ : أي الذين تدوم سعادتهم و يدوم نعيمهم و يتمتعون في هذه الجنة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)

وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩))

أرأيتم : أي أخبروني.

على بينة من ربي : أي على علم علمنيه الله فعلمت أنه لا إله إلا الله.

فعميت عليكم : أي خفيت عليكم فلم تروها.

أنُلزِمُكمُوها : أي أجبركم على قبولها.

بطَارد الذين آمنوا : أي بمبعدهم عني ومن حولي.

خزائن الله : التي فيها الفضل والمال. تزدري أعينكم : تحتقر أعينكم.

هل تجوز أخذ الأجرة على الدعوة و تعليم القرآن و تعليم الدين ؟

خلاصة أقوال العلماء في المسألة: المسألة فيها ثلاثة أقوال :

القول الأول : بالمنع و التحريم :و هو قول أبو حنيفة و إحدى الروايتين عند أحمد .

القول الثانى : أنه يُكره مع الشرط (أن المعلم يشترط أجرا) : إنما لو أخذ بغير شرطٍ فإنه لا يُكره له و هو ظاهر كلام أحمد رحمه الله .

القول الثالث : جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن و هو قول أكثر أهل العلم و هو مذهب مالك و الشافعى ، و ممن رخص أيضا في أخذ أجور المعلمين أبو قلابة و أبو ثور و ابن المنذر .

يقول الشنقيطى رحمه الله : (و الذى يظهر لى أن الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضرورية فالأولى له أن لا يأخذ عوضا على تعليم القرآن و لا العقائد و الحلال و الحرام ، و إن دعته الحاجة أخذ بقدر الضرورة من بيت مال المسلمين ، لأن الظاهر أن المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة على التعليم لا من قبيل الأجرة ، و الأولى لمن أغناه الله أن يتعفف عن أخذ شيءٍ في مقابل التعليم للقرآن و العقائد و الحلال و الحرام ، و العلم عند الله تعالى .

الأمر الثانى : كيف نجمع بين هذه الآيات و بين قول الله تعالى : (قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ)؟

كيف نجمع بين نفى الأجر تماما و بين الآية ؟

القربى : إما أنها الأعمال الصالحة و الطاعة ، و يكون معنى الآية (قل لا أسألكم عليه أجرا ، لكن تتوددوا إلى الله و تتقربوا إليه بالطاعة و العمل الصالح) ، فالقربى هنا معناها العمل الصالح و الطاعة ، و هذا قول الحسن .

و إما أن القربى بمعنى : قرابة النبى صلى الله عليه و سلم من قريش ، أو وجود قرابته فيهم ، فعلى المعنى الأول أنه يكون له قرابة و نسب في قريش يكون المعنى (إلا أن تودونى في قرابتى التي بينى و بينكم ، فتكفوا عنى أذاكم ، و

تمنعوني من أذى الناس ، كما تمنعون كل من بينكم و بينه مثل قرابتي منكم) و هذا أيضا ليس بأجر ، لماذا ؟ لأن هذا أمرٌ مبذولٌ لكل أحد . و هذا القول إختيار (ابن جرير) و هو الصحيح في معنى هذه الآية

إذا كان بمعنى قرابة قومه فيهم : (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوا إلى قرابتكم و تصلوا أرحامكم) ، كأنه يدعوهم إلى صلة الرحم لهؤلاء القرابة .

إذا كان القرابة بمعنى أهل بيت النبي صلى الله عليه و سلم : فيكون معناها لا تُؤذوا قرابتي و عترتي و احفظوني فيهم ، و هذا ليس أجرا ، لأن نفس الدين يوجب على المسلمين أن يفعلوا ذلك ، لأن عدم الأذية أمر واجب عندنا سواء كان لقرابة النبي صلى الله عليه و سلم أو لغيرهم ، فأصل الدين يوجبه ، فليس بأجر و إنما من باب التنبيه على شيء و فقط ، فهم لهم درجة أعلى و لكن الأصل أنهم لا يُؤذون و يُمنعون كما يُمنع المسلمون .

- و هذا الإستثناء يُسمى بالإستثناء المنقطع – ليس متصلا – : أي أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه .

إلا المودة في القربى ليست من جنس الأجر أصلا ، و لذلك كل التخريجات في أقوال أهل العلم لا تمت لمسألة الأجر بصلة فتتفق هذه الآية مع باقي الآيات .

ننتقل إلى الآية

(وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨))

هَؤُلاء بَنَاتِي : ما الذى بقصده لوطٌ عليه السلام بهذه الكلمة ؟

فيها ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط و لم يرد إمضاء ما قال ، و بهذا قال عكرمة و أبو عبيدة .

القول الثاني : أن المراد بناته لصلبه : و أن المعنى دعوا فاحشة اللواط و أن أزوجكم بناتي .

هنا يأتي إعتراض ، ألم يكونوا كفرة ؟ بلى ... فكيف يُزوج بناته لهؤلاء الكفرة ؟

ج - لعل هذا كان شرعا عندهم ، جواز تزويج الكافر لمسلمة ، و هذا قد حدث في أول الإسلام حيث كانت بنات النبي صلى الله عليه و سلم تحت الكفار ، و قصة زينب بنت الرسول صلى الله عليه و سلم مع زوجها أبي العاص معلومة ، و هذا استقر على نسخه بأن لا يجوز إجماعا أن تبقى المرأة المسلمة تحت الكافر .

و لكن هذا القول مستبعد أيضا ، فكم كان عند لوط من البنات ؟ فإنه إن زوج بعض هؤلاء بناته ، بقي البعض الآخر ، و لكن بعض أهل العلم يقول أنها مجرد نقلة ، أي عرض بناته للتزويج فعلا ، و لكنها مجرد نقلة ، لأنه بين أنهم كانوا قد انتكست فطرهم (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) ، فإذاً خلق الله لهن النساء فتركوا النساء و أتوا الرجال (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً) هذه مصيبة كبيرة (مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) و هذه مصيبة ثانية ، و هذا توبيخٌ فوق توبيخ ، (تَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً) فقد عكستم و

(مِنْ دُون النِّسَاء) و هذا أفظع ، فالله قد خلق لكم ما تُفرغون فيه هذه الشهوة ، فبعض أهل العلم يقولون : عرض بناته للتزويج ، و لكن حتى ينقلهم من مجرد تفريغ الشهوة في الرجال إلى أن يعلموا أن لها موضع قد خلقه الله جل و علا ، فتستقيم الفطرة بعد أن إنقلبت .

القول الثالث : أن المراد بالبنات جميع نساء قومه و استدل أصحاب هذا القول بأن نبى القوم أب دينى لهم و استدلوا بقراءة أُبى بن كعب أن النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأزواجه أمهاتهم و هو أبٌ لهم ، و رُوى نحوها عن ابن عباس ، و بهذا القول قال أكثر العلماء ، و هو أقرب ما قيل في هذه الآية .

بين الله جل و علا عقوبة قوم لوطٍ أيضا ، و هي أن الله أهلكهم بنزع قراهم و قلبها ثم أُتبعوا الحجارة من سجيلٍ منضود ، حجارة من طينٍ قد طُبخ و هي مُعلَمة لهؤلاء المسرفين المتجاوزين لحدود الله جل و علا .

فما هي عقوبة من إرتكب فاحشة اللواط ؟

فيها ثلاث أقوال :

القول الأول : أن الفاعل و المفعول به يُقتلان مطلقا ، سواء كانا محصنين أو بكرين أو أحدهما محصنا و الآخر بكرا ، و هذا قول مالك و أصحابه ، و أحد قولى الشافعى ، و احدى الروايتين عن أحمد ، بل بعض أهل العلم يحكيه إجماعا عن الصحابة رضى الله عنهم ، منهم (ابن القيم) الذى يقول : (وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم على قتله ، لم يختلف فيه رجلان و إنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله ، فظن بعض الناس أن ذلك إختلاف منهم في قتله ، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة و هي بينهم مسألة إجماعٍ لا مسألة نزاع) .

و قد ورد فيه الحديث : (أقتلوا الفاعل و المفعول فيه) ، و أصحاب هذا القول إختلفوا في القتل بما يكون ، كيف يُقتل ؟ فقال بعضهم بالسيف ، و قال بعضهم يُرجم بالحجارة ، و قال بعضهم يُحَرق بالنار ، و قال بعضهم يُرفع على أعلى بناء في البلد فيُرمى منه منكسا و يُتبع بالحجارة ، كأنه قال (هذا فعل الله بهم و نحن نفعل مثل هذا الفعل تماما) .و هذا القول هو الأرجح .

القول الثانى : يقول أن اللواط زنا فيقيم عليه الحد مثل حد الزانى ، و حد الزانى إن كان غير محصن يُجلد مئة جلدة و يُغرب سنة ، و إن كان محصناً يُرجم ، و هذا القول أحد قولى الشافعى ، و احدى الروايتين عن أحمد ، و هو قول أبو يوسف و محمد اسحق أبى حنيفة .

القول الثالث : اللايط لا يُقتل و لا يُحد حد الزنا و إنما يُعزر بالضرب و السجن و نحو ذلك و هذا قول أبى حنيفة

(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧))

أَصَلاتُكَ : قيل إما أنهم رأوه يصلى أو قراءته و الوحى الذى جاء به ، و هذا قول الأعمش .

أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء : هو شعار الرأسمالية العصرية التي أسس لها وليم سميث بقوله : (دعه يربح ، دعه يمر) ، و هذا معناه أن هذه البذور لكل هذه الشرور الموجودة كان لها أصل ، فيقول الأستاذ الدكتور جعفر إدريس : (النظام الرأسمالي السائد في العالم اليوم إنهارت أعمدته ، و بدأت أخرى تهتز ، و إذا لم يعرفوا الرأسمالية إلا في صورتها عند سميث ، دعه يعمل دعه يمر ، فإننا نعلم أنها نظرية قديمة من أهل مدين قالوا (أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء) و نبيهم يدعوهم (إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) و في ذا عبرة للمسلمين و ثقة بتعاليم ربهم .)

لابد أن نثق لأن أمامنا كل النظريات المعاصرة الآن لها جذور في الأمم الهالكة و لكن تحتاج إلى نظر ثاقب .

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٨٨))

إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ :

ليس من شرط الإصلاح إدراك النجاح (إن أُريد) و لكن التوفيق بيد الله جل و علا ، فأنت تريد و تسعى و تأخذ بالأسباب ، و الله جل و علا هو الموفق و عليه التكلان .

(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١))

وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ :

يقول (ابن تيمية) : (تدبر ما ذكره الله عن أعداء الرسل من نفى فقههم و تكذيبهم ، تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله ، و عن تدبر كتابه ، و اتبع ما تتلوه الشياطين و ما توحيه إلى أوليائهم) ، قال تعالى : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) ، هذه في قولهم : (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ) لا يفهموا لماذا ؟ لأنهم أعرضوا عن الله و عن تدبر كتابه و اتبعوا ما تتلوه الشياطين عياذا بالله .

لم يلتفت شعيب عليه السلام لقدحهم في شخصه ، حيث قالوا له أنت ضعيف و لولا وجود هذه العصبة عندك لرجمناك ، فلم يلتفت لقدحهم فيه و لم يأخذه العُجب بإعترافهم بقوة رهطه ، بل تأثر لعدم إيمانهم لأن عزته و قوته هي بالله وحده .

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢))

هل هذه الآية فيها دلالة على أن الإنسان يتعزز بروابطه العصبية ؟

يقول الشنقيطي رحمه الله : (بَين تعالى في هذه الآية أن نبيه شعيب عليه و على نبينا الصلاة و السلام ، منعه الله من الكفار و أعز جانبه بسبب العواطف العصبية و الأواصر النسبية من قومه الذين هم كفار ، و هو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه الله و يعزه بنصرة قريبه الكافر ، كما بينه تعالى في مواضع أُخر ، كقوله في صالح و قومه : (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) ، ففي الآية دليلٌ على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح عليه السلام إلا في حال الخفاء ، و أنهم لو فعلوا به ذلك خفاءًا و سرقة لكانوا يحلفون لأولياءه الذين هم عصبته ، أنهم ما فعلوا به سوءًا و لا شيء من ذلك و لا حضروه خوفا من عصبته ، فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار ، و قد يكون من منن الله على بعض أنبياءه المرسلين صلوات الله و سلامه عليهم ، و في الصحيح عن الرسول صلى الله عليه و سلم أنه قال : (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) ، و في المثل : (إجتنى الثمار و ألقى الخشبة في النار) ، فإذا عرفت دلالة القرآن على أن المسلم قد ينتفع برابطة نسب و عصبية من كافر ، فأعلم أن النداء بالروابط العصبية لا يجوز ، لإجماع المسلمين على أن المسلم لا يجوز له الدعاء ببنى فلان و نحوها .

و قد ثبت في صحيح البخارى من حديث جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال في تلك الدعوة : (دعوها فإنها مُنتنة) ، و قوله صلى الله عليه و سلم دعوها يدل على وجوب تركها لأن صيغة أفعل للوجوب إلا بدليل صارف عنه ، و ليس هناك دليل صارف عنه ، و يؤيد ذلك تعليله الأمر بتركها لأنها منتنة ، و ما صرح النبى صلى الله عليه و سلم الأمر بتركه لأنه منتن ، لا يجوز لأحد تعاطيه ، و إنما الواجب على المسلمين النداء بؤابطة الإسلام التي هي من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسان واحد فهى تربطك بأخيك المسلم ، قال الرسول صلى الله عليه و سلم : (((مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم: مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو: تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمّى)) .

. الحمد لله رب العالمين .